مفهوم الدولة بين عليّ بن أبي طالب (ع) وعبد الكريم قاسم

أ.د.عماد مكلف البدران

لا يختلف سني ولا شيعي في العراق قديماً، على إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وحتى ولايته سواء انسحبت على الجانب السياسي وحكومة الأمة أم اقتصرت على الجانب الديني. فيوم الغدير وإعلان الولاية ثابت عند الفريقين. إنما الاختلاف بالتفاسير. وموضوع المقال يسلّط الضوء على كل من يحب عليّ بن أبي طالب (ع) بغض النظر عن الخريطة التي ينتشر فيها هذا الحب والولاء. ويهتم أيضاً بكل من يحبّ عبد الكريم قاسم ومعجب به من الأجيال السابقة والحالية التي تأثرت عبر الحدّ الزمني بالروايات المكتوبة والشفوية المنقولة . فخريطة حبّ الإمام علي (ع) في العراق هي نفسها وربما أقل مساحة، التي يوجد فيها حبّ عبد الكريم. فما هي وجهة نظرهما من الدولة؟ قال أمير المؤمنين عن ضرورة وجود حاكم :" وَالٍ ظَلُومٌ خَيْرٌ مِنْ فُتْنَةٍ تَدُومُ " . إذن فمن الضرورة بمكان وجود سلطة تأخذ على عاتقها إدارة شؤون المجتمع بغض النظر عن مشروعيّة تلك السلطة من عدمها . سواء كانت تستمد شرعيتها من السماء . أم من البشر ولهذا المعنى لمح أمير المؤمنين بقوله :"وَإِنَّهُ لَابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ. يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ. وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ. وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ. وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ. وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ. وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ. حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ. وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ" ويستشف من هذه القول إن بعض المكام وإن كانوا فجاراً منغمسين في لذاتهم ونزواتهم . إلا أنهم من جهة أخرى ومن أجل تثبيت دعائم حكمهم تراهم يسعون للحفظ على النظام العام ما يضمن تحقيق العدل ولو بشكل عرضي وبنحو جزئي . وقد يساعد في توفير الأمن المجتمعي ولو في نطاق محدود. وقد أرسى أمير المؤمنين (ع) قواعد مبدأ المواطنة في وثيقة العهد لواليه على اليمن مالك الاشتر(رض) حيث قال " النَّاسُ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ " وهي قاعدة للتعامل مع جميع أطياف الشعب . وجُلّت قوة الدولة عند الإمام كونها قوة أخلاقية ومؤسسية تستمد شرعيتها من العدل والقانون وليس من البطش وقد ربط الإمام قوة الدولة وازدهارها بمدى حبّ أبنائها لها ومملهم على تطويرها وهي ما تضمنته نصوصه التنموية مثل قوله " عُمِّرت البلدانُ بحبِّ الأوطان" .وبالنسبة لعبد الكريم قاسم انطلق مقولته الشهيرة " الدولة فوق الميول والاتجاهات" وكانت تعني أن هيبة الدولة وسيادتها ووحدة أراضيها يجب أن تبقى أسمى وأعلى من أي انتماءات حزبية أو طائفية أو عرقية أو عشائرية أو ايديولوجية. اذ سعت حكومته إلى تحديث قوانين الدولة لتتناسب مع روح العصر من خلال تبني تشريعات مدنية مثل قانون الأحوال المدنية عام ١٩٥٩ الذي ضمن حقوق واسعة للمرأة والأسرة. و وقد أمن عبد الكريم بضرورة صهر أطياف الشعب كافة وطوائفه في بوتقة دولة المواطنة . وعدّ الدولة مؤسسة وطنية مستقلة قائمة على أساس المواطنة والعدالة. وبعد سن حكومته قانون الإصلاح الزراعي ١٩٥٨ وإلغاء الاقطاع هدف إلى إلغاء هيمنة شيوخ العشائر سعياً منه لتأسيس هوية وطنية قائمة على أساس المواطنة والمساواة أمام القانون .ومن أجل ذلك ألغى عبد الكريم قاسم نظام دعاوى العشائر الذي كان معمولاً به في العهد الملكي وهو النظام الذي منح شيوخ العشائر سلطات واسعة وسلطة قضائية على الفلاحين وعمل عبد الكريم على اخضاع الفلاحين للقانون المدني وتشريعات الدولة. والرسالة هنا إلى كل من يحبّ الإمام عليّ (ع) وعبد الكريم قاسم . هل تؤمنون بالدولة وقوانينها وسطوتها؟ هل تؤمنون بمدنية الدولة وتكفون عن تحويل المدن الى عادات وأعراف قبلية متطرفة تحل محل قانون الدولة وهيبتها وتنبذون (العطوة والدكة العشائرية والفصول المبالغ فيها) وتنزعون سلاحكم ليسود حكم الدولة وأن يصبح السلاح بيدها وحدها راجعوا أنفسكم وأنتم ترفعون شعارات الحب والولاء والطاعة للإمام عليّ (ع) وتحبون عبد الكريم قاسم الذي أراد دولة وليست أعرافاً قبلية.